**نثر الصَّايغ**

**قراءة في المقالات**

**د. سمر روحي الفيصل**

لم يُخطئ مَنْ قال إنّ حبيب الصّايغ "بدأ صحفيّاً، ومات وهو صحفيّ"**(1)**. فقد انصرف الصّايغ طوال حياته إلى العمل الصّحفيّ**(2)**، وكتب في أثناء ذلك عدداً غير قليل من المقالات، ولكنّه لم يجمع مقالاته في كُتُب، فبقيتْ حبيسة الصّحف التي نُشِرتْ فيها. ولولا المواقع الإلكترونيّة التي احتفظتْ ببعض هذه المقالات لما كنّا قادرين على تقديم قراءة لمقالاته تتّسم بالحدود الدُّنيا من المنهجيّة، وتبتعد كثيراً عن الآراء الانطباعيّة الذّاتيّة. ويمكنني القول، ضمن الحذر المنهجيّ المطلوب في هذه الحال، إنّ مقالات الصّايغ التي استطعتُ الحصول عليها**(3)**، وهي قليل من كثير، قادتني إلى أنّها ذات طبيعتين؛ مضمونيّة وفنّيّة.

**أوّلاً: الطّبيعة المضمونيّة**

أعتقد أنّ مقالات الصّايغ ذات طبيعة مضمونيّة واحدة وإن اختلفت موضوعاتها بين الاجتماعيّ والوطنيّ والسّياسيّ والعربيّ والإنسانيّ. فهي طبيعة نابعة من رؤية الصّايغ الذّاتيّة للأفكار التي جَعَلَها محور مقالاته. فإذا كَتَب عن وطنه الإمارات، كما هي حاله في مقالاته: خارج فريق العمل**(4)**، ومحمد ومحمد اعتداد يقود إلى اعتداد**(5)**، ومع بدء سباق الوطني**(6)**، وعزف غير منفرد على القانون**(7)**، وفلسفة ورسم وموسيقى**(8)**، ومن أول ساعة غياب**(9)** ... رأيتَه ينتقد، أو يُنبِّه، أو يشيد، أو يُذكِّر بما يراه، من وجهة نظره، في صالح الإمارات ليس غير. لا فرق، في هذه الرّؤية الذّاتيّة، بين التّنبيه على غياب الفلسفة والموسيقى من مناهج التّعليم، أو الدّعوة إلى التزام الموظَّفين بمواقيت العمل، أو الإشادة بالمحمَّدين الشَّيخين؛ محمّد بن راشد ومحمّد بن زايد، في الارتقاء باقتصاد الإمارات وتنميتها وتحديثها، وجَعْلهما محبّة النّاس والعمل للصالح العامّ، هدفاً رئيساً من أهدافهما. فرؤية حبيب الصّايغ الذّاتيّة لقضايا وطنه حفزته إلى أن يطرح في مقالاته ما يراه في صالح وطنه من وجهة نظره. وهذا الأمر يُعلِّل حِرْصَه على الإشادة بالإيجابيّات، ونقد السّلبيّات، وعدم الاكتفاء بأحدهما دون الآخر؛ لأنّ تعزيز الإيجابيّات، والتّنبيه على السّلبيّات، أمران لا ينفصلان ضمن رؤيته الذّاتيّة.

قُلْ مثل ذلك في المقالات التي كتبها الصّايغ عن أمور مرتبطة بالوطن العربيّ، من مثل مقالاته عن السّعوديّة واليمن وفلسطين. فهو يُنبِّه، أو يشيد، أو يُحذِّر، انطلاقاً من رؤيته الذّاتيّة نفسها. فالعلاقة بين الإمارات والسّعوديّة في مقالته "عَلاقة تَخْلُق تاريخاً"**(10)** تُرسِّخ، ضمن رؤيته الذّاتيّة، العملَ المشتركَ الهادفَ إلى تجسيد أَمْنِ المنطقة واستقرارِها في ظروف إقليميّة وعربيّة وعالميّة شائكة. ولهذا السّبب أشاد في مقالته المذكورة بلقاء الزّعيمين؛ الملكِ سلمانَ بنِ عبد العزيزِ آلِ سعود والشّيخِ محمّدِ بنِ زايدٍ آل نهيان، وعَدَّ هذا اللّقاء عنواناً للتّعاون والتّنسيق والتّشاور. وفي مقابل ذلك انتقد في مقالته "محسوبون على الإمارات"**(11)** مَن استغلَّ الظّروف الإقليميّة نفسَها في تشويه صورة الإمارات في العالم، كما انتقد الحال التي صار إليها اليمنيّون الجنوبيّون في مقالته "المعاشيق وتقرير المصير"**(12)**.

وليس من المفيد الاسترسال في الإشارة إلى المقالات التي كتبها الصّايغ انطلاقاً من رؤيته الذّاتيّة، فهي كلُّها، في حدود ما اطّلعتُ عليه، تَسِمُ الطّبيعة المضمونيّة بِميْسَمها، وتُعلن شيئاً بارزاً في هذه الطّبيعة، هو بروز شخصيّته في أثناء التّعبير عن أفكاره، وتأثُّرُه بالأحداث التي مرّ بها العرب، ورغبتُه في تقديم رأيه فيها، سواءٌ أكانت خاصّة بالإمارات أم عامّة شاملة الوطن العربيّ. وهذه إحدى ميزات المقالة في أدب الصّايغ. فهو أديب المقالة الذّاتيّة المعبِّرة عن رأيه في أحداث وطنه وأمّته، وليس أديب المقالة الموضوعيّة التي تُفصِّل وتُعلِّل وتستنتج. وسأشير إلى ذلك ثانيةً في أثناء حديثي القابل عن الطّبيعة الفنّيّة في مقالات الصّايغ. ولكنّني أرغب هنا في القول إنّ الرّؤية الذّاتيّة التي اتّسمتْ بها مقالات الصّايغ هي نفسُها الرّؤيةُ الذّاتيّةُ التي نستطيع ملاحظتها في شعره. فهو في شعره ذاتيٌّ رومانسيّ حالم**(13)** حين كتب قصيدته عن الاسكندريّة في "قصائد على بحر البحر"**(14)**، وحين كتب قصيدته عن الكويت**(15)**، وقصيدته "الرّايات"**(16)** التي بثَّ فيها قلقه من المستقبل القريب الذي أومأت إليه أحداث الحاضر. ففي هذه القصائد، وفي غيرها، نسمع صوت الصّايغ واضحاً، ونلمِسُ رؤيته الذّاتيّة لما يُحيط به، ولا نعثر على شيء آخر وإن دار شعره حول الطّبيعة، أو حول الجزيرة المجازيّة، أو حول الشّجرة، أو حول البحر. فهو فيها كلِّها الشّاعرُ الحالم بالتّغيير والأمن والاستقرار، ضمن رؤية ذاتيّة لم أرها تختلف بين مقالاته وشعره، رغم أنّ تأكيد ذلك يحتاج إلى مراجعة الدّراسات والكتب التي حلَّلتْ شعره**(17)**، فضلاً عن أنّ هذا التّأكيد سيجعل المقولة التي قرأتُها، وهي أنّ الصّايغ "استطاع الفصل بين كونه شاعراً وصحافيّاً"**(19)**، تحتاج إلى تعديل. فهو في الشّعر وفي المقالة معبِّر عن رؤية ذاتيّة، ولكنّ وسيلة التّعبير اللّغويّة المختلفة فيهما هي التي قادت إلى الظّنّ بأنّ هناك انفصالاً بين شعر الصّايغ ومقالاته.

**ثانياً: الطّبيعة الفنّيّة**

أعتقد أنّ الظّنّ بأنّ هناك انفصالاً بين شعر الصّايغ ومقالاته نبع من اختلاف اللّغة المستعمَلَة فيهما. فلغة الشّعر عنده لغة الصُّور وأنسنة موجودات الطّبيعة والحياة، وهي في المقالات لغة واضحة مباشرة، تطرح فكرة واحدة في كلّ مقالة، وتعرضها عرضاً مباشراً لا أثر للصُّور وإيحاءاتها فيها. وهذه اللّغة المباشرة تصدق على العنوانات التي اختارها الصّايغ لمقالاته. فالعنوان دالّ على فكرة المقالة عنده، وإن جنح فيه إلى المجاز الحديث نادراً، كما هي حاله في عنوان مقالته "عزف غير منفرد على القانون"، رأيتَه يبدأ المقالة بما يُبعد المتلقّي عن المجاز قائلاً: "تذهب العبارة [يقصد عنوان المقالة] إلى الاستعارة، فليس في الموضوع موسيقى ولا مَنْ يعزفون، إنّما ينصرف القصد إلى القانون الذي نحترم بقدر ما يؤثّر في حياتنا وحياة المجتمع". فإذا جنح الصّايغ بالعنوان إلى المجاز الحديث بما يضمّه هذا المجاز من كناية، كعنوان مقالته "الأرض على قرني ثور الكراهية"، لم يلتفت إلى توضيح المراد من الكناية في عنوان المقالة؛ لارتباطه بدلالات عدّة، بعضها دينيّ، وبعضها الآخر مستَمَدّ من معتقدات الشّرق الأدنى القديم، وبعضها معروف عند العرب في الجاهليّة. ولا تسمح المقالة بتوضيح الدّلالات كلّها. وخير من ذلك عدم شرح العنوان، والإبقاء على فَهْم المتلقّي لهذه الكناية على أنّها عدم ثبات الأرض ومَنْ عليها إذا كانت الكراهية سائدة فيها. والمتلقّي يفهم ذلك من نصّ المقالة؛ لأنّه فكرتها الرّئيسة.

هذه اللّغة المباشرة الواضحة المحدَّدة هي وسيلة التّعبير عن الفكرة في مقالات الصّايغ، ولكنّه يُعبِّر بهذه اللّغة عن أفكارٍ معيَّنةٍ انطلاقاً من رؤيته الذّاتيّة لها. وهو حريص في أثناء هذا التّعبير على الإيجاز والتّركيز. فهو لا يشرح، ولا يُفصِّل، ولا يُعلِّل، ولا يستنتج، ولا يربط الأسباب بالنّتائج، بل يطرح الفكرة، ويُعبِّر عن رؤيته لطبيعتها وآثارها، دون أن يحيد عنها. فإذا فرغ من توضيحها أنهى مقالته. لهذا السّبب أصبحت مقالاته ذاتيّة، ولم تقترب من الموضوعيّة التي تُسهب وتُفصّل وتشرح. كما أصبحت هذه المقالات موجزة أقرب إلى الخاطرة. بل هي هي في إيجازها وتركيزها واهتمامها بفكرة واحدة ليس غير. إنّها أقرب إلى الخاطرة؛ لأنّ الصّايغ كان يدخل العَرْضَ مباشرة، دون مقدّمات تُمهّد لعرض الفكرة. كما أنّه كان يدخل العَرْضَ مقترناً برأيه في الفكرة. بدأ مقالته "الأرض على قرني ثور الكراهية" بقوله: "لا للتخفيف، فالكراهية أوّل الإرهاب وآخره". وبدأ مقالته "خارج فريق العمل" بقوله: "ينسجم فريق العمل مع فكرته ومنطلقه نحو أداء حكوميّ متميّز". وبدأ مقالته "المعاشيق وتقرير المصير" بقوله: "على اليمن الإفادة القصوى من التّجارب السّابقة غير المنفصلة عمّا يحدث الآن". لا أعدِّد بدايات المقالات عند الصّايغ، فهي كلّها، في حدود ما اطّلعتُ عليه، تدخل العَرْض ممزوجاً برأي الصّايغ في الفكرة التي يُقدّمها ولا يحيد عنها طوال المقالة. وهذه طبيعة الخاطرة عموماً، ولعلّها طبيعةٌ متأثّرةٌ بالصِّحافة التي كُتِبت الخاطرة من أجل النَّشْر فيها. إذ إنّ المكان في الصِّحافة محدود، ليس فيه متَّسع للإطالة، وليس الصّايغ بالمحبّ للإطالة في الوقت نفسه.

إنّ الطّبيعة الفنّيّة لمقالات الصّايغ لا تقتصر على استعمال اللّغة في الدّلالة المباشرة على الفكرة، دون اللّجوء إلى المجاز وتوابعه، بل إنّها تعتمد دائماً الأسلوب الحرّ، وهو أسلوب لا ضابط منهجيّاً له غيرَ تعبير الصّايغ عن وجهة نظره في هذه الفكرة، أو ما عبَّر النّقّاد عنه ببروز شخصيّة الكاتب**(20)**. لهذا السّبب صنَّفتُ مقالات الصّايغ ضمن المقالة الذّاتيّة؛ لأنّ الذّات لا ضابط لها غيرَ طبيعة صاحبها ومكوّناته. والظّنُّ أنّ طبيعة الصّايغ هي طبيعة المحبّ للإيجاز، العازفِ عن الشّروح والتّفصيلات. ولعلّ الصِّحافة كانت مواتية له، فنشر فيها مقالاتِه الموجزة. ولا أعرف له خارج الصِّحافة مقالاتٍ طويلةً، أو أقربَ إلى الطُّول. ولا أعرف له مقالاتٍ موضوعيّةً تتوافر فيها المقدّمةُ والعَرْضُ والخاتمة والشَّرْح والتّفصيل والأدلّة النّقليّة والعقليّة وعَرْضُ وجهاتِ النَّظرِ المتباينةِ في الفكرة المعروضة. فهناك في مقالات الصّايغ فكرةٌ ورأي ولغة واضحة، وما يرتبط بالرّأي من توضيح، وما يتعلّق باللّغة من إيجاز. وهذه كلُّها لا ضابط منهجيّاً لها؛ ومن ثَمَّ كان الأسلوب الحرُّ أقربَ تعبير عن طبيعتها الفنّيّة. وربّما كان العنوان العامّ للكثرة الكاثرة منها، وهو "زاوية حادّة"، دالاً على انفتاحها من حيث الشّكل، وعلى عدم توافر القيود من حيث المضمون.

ثمّ إنّ الطّبيعة الفنّيّة لمقالات الصّايغ تنسجم والاتّجاه العامَّ للمقالات الصّحفيّة في العقود الأربعة الأخيرة على أقلّ تقدير. وأوّل هذا الانسجام العجز عن تقديم تعريف للمقالة الذّاتيّة، على عكس الحال بالنّسبة إلى المقالة الأدبيّة التي كانت سائدة في النّصف الأوّل من القرن العشرين لدى طه حسين ومجايليه. ولعلّ هذا الأمر هو الذي حفز محمّد يوسف نجم في بداية النّصف الثّاني من القرن العشرين إلى القول إنّ المقالة في هذا القرن "لم تعد فنّاً من الفنون الأدبيّة التي تتجلّى فيها قدرة الأديب على الإبداع. إذ تحوّلت إلى أداة سريعة في يد الصّحافة"**(22)**. وقد تصدق، استناداً إلى ذلك، تسمية مقالة الصّايغ الذّاتيّة مقالةَ رأي. فالرّأي جوهرها، ومسوّغ كتابتها. والأمر الثّاني الذي يجعل مقالات الصّايغ تنسجم والاتّجاه العامّ للمقالات الصّحفيّة هو تغيُّر مفهوم الصّحافة في العقود الأخيرة، إذ أصبحت صحافة خبر ورأي؛ الخبرِ الصّحيحِ ما أمكن ذلك، والرّأي الواضح الجريء المحدَّد ما أمكن ذلك. وهذا ما يمكن إدراج مقالات الصّايغ فيه، فهو كاتب رأي، ومقالته مقالة رأي، عمادها الوضوح بغية التّأثير في المتلقّي.

إنّ مقالات الصّايغ تحتاج، أيضاً، إلى قراءة تاريخيّة ترصد تطوّرها من بداياتها إلى نهاياتها. ولكنّ ذلك يصعب الإقدام عليه ما لم تُجمع هذه المقالات بين دفّتي كتاب. وفي ذلك فلْيتنافس المحبّون لهذا الأديب الشّاعر الأصيل.

\*\*\*

**الإحالات**

1. ذكر محمد الحمّادي هذا القول في ندوة "حبيب الصّايغ كاتباً صحفيّاً"، التي عقدها اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، فرع أبو ظبي، في اكتوبر، 2019. والمعروف أن حبيب الصايغ ولد في أبو ظبي عام 1955، وتوفي في 22/8/2019
2. أصدر حبيب الصايغ في بدايات ثمانينيات القرن العشرين مجلة ثقافية سمّاها "أوراق"، وأشرف على الملحق الثقافي لصحيفة "الفجر"، وكتب في مجلة "الأزمنة العربية" التي أصدرها شهاب غانم، ورأس تحرير صحيفة "الخليج"، ومجلس إدارة اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، وأصبح الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب، فضلاً عن عضويته في عدد غير قليل من المؤسسات، ومنها عضوية اللجنة الاستشارية للشارقة عاصمة عالمية للكتاب عام 2019.
3. المقالات التي استطعتُ الحصول عليها، وجعلتها متناً لقراءتي مقالات حبيب الصايغ، أربع عشرة مقالة، هي:

* خارج فريق العمل.
* محمد ومحمد اعتداد يقود إلى اعتداد.
* مع بدء سباق الوطني.
* عزف غير منفرد على القانون.
* فلسفة ورسم وموسيقى.
* من أول ساعة غياب.
* علاقة تخلق تاريخاً.
* محسوبون على الإمارات.
* المعاشيق وتقرير المصير.
* إلا الصحة والتعليم.
* الأرض على قرني ثور الكراهية.
* قطر أو حارة "كل من إيدو إلو".
* مستجدّات الخليج على صفيح ساخن.
* قطر والصومال، الفضيحة لسان الحال.

1. نُشِرت مقالة "خارج فريق العمل" بتاريخ 14/8/2019.
2. نُشِرت مقالة "محمد ومحمد اعتداد يقود إلى اعتداد" بتاريخ 31/7/2019.
3. نُشِرت مقالة "مع بدء سباق الوطني، مقدمات ضرورية" بتاريخ 18/8/2019.
4. نُشِرت مقالة "عزف غير منفرد على القانون" بتاريخ 16/8/2019.
5. نُشِرت مقالة "فلسفة ورسم وموسيقى" بتاريخ 17/8/2019.
6. نُشِرت مقالة "من أول ساعة غياب" بتاريخ 19/8/2019.
7. نُشِرت مقالة "علاقة تخلق تاريخاً جديداً" بتاريخ 13/8/2019.
8. نُشِرت مقالة "محسوبون على الإمارات" بتاريخ 21/6/2019.
9. نُشِرت مقالة "المعاشيق وتقرير المصير" بتاريخ 9/8/2019.
10. أفدتُ في الإشارات إلى قصائد حبيب الصايغ من مقالة غير منشورة للدكتور يوسف حطيني، عنوانها "حبيب الصايغ يرحل تاركاً أسراب الفراشات". وقد أذن لي الدكتور حطيني بتاريخ 13/2/2020 بالإفادة منها.
11. حبيب الصايغ: قصائد على بحر البحر، الوراقون للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 1993، ص 82.
12. المصدر السابق، ص 51- 52. و: يوسف حطيني (د): الشعر الإماراتي، قراءة في الموضوع والفن، دائرة الثقافة، الشارقة، 2012، ص 115.و: واصف باقي: القضية في شعر الإمارات، مطابع الجزيرة، أبو ظبي، 1977، ص 65.
13. حبيب الصايغ: غد، المستقلة للطباعة والنشر، أبو ظبي، 1996، ص 112- 113.
14. صدرت عن شعر حبيب الصايغ الكتب الآتية في حدود ما أعلم:

* سامح كعوش: سيرة غيم يهذي، قراءة في التجربة الشعرية لحبيب الصايغ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، 2012.
* وليد علاء الدين (تحرير): حبيب الصايغ، ريادة الشعر والحياة، دائرة الثقافة، الشارقة، 2012.
* صدّيق جوهر (د): حبيب الصايغ بين التاريخ والأسطورة، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، 2015.
* صدّيق جوهر (د): تمرُّد اللغة واستعادة الصوت، قراءة في عوالم حبيب الصايغ الشعرية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، 2016
* صدّيق جوهر (د): تضاريس على خرائط الصمت، تجليات حبيب الصايغ الشعرية، مؤسسة بتانة، القاهرة، 2017.
* دريد يحيى الخواجة (د): الدلالة الحافة في شعرية النص الجديد، أسلوب النص، تجربة الشاعر حبيب الصايغ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ووزارة الثقافة وتنمية المعرفة، الإمارات، 2018.
* محمد عبد الله نور الدين: تجربة حبيب الصايغ الشعرية، دراسة تحليلية لديوان "رسم بياني لأسراب الفراشات".

1. وردت مقولة الفصل عند حبيب الصايغ بين الشعر والصحافة في ندوة "حبيب الصّايغ كاتباً صحفيّاً"، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، فرع أبو ظبي، أكتوبر، 2019
2. للتفصيل حول بروز شخصية الكاتب في المقالة، انظر: محمد يوسف نجم (د): فن المقالة، دار صادر، بيروت، الط 4، 1966، ص 25.
3. المرجع السابق، ص 3- 4.